على رجاء الأفضل

من كان أهم من المرشحين هو هذا المواطن الذي يمتحنه وعيه غدا والاحد المقبل. بعد الثالث من ايلول سيقول الناس اذا أصابتهم محنة أم لم تصبهم. ولكنا في يومي الاقتراع سيمتحننا قلبنا ليوحي ان كنا صادقين وفاهمين. ذلك ان الصدق وحده لا يكفي ولا الفهم وحده يكفي.

ومن مقومات الصدق الشجاعة التي تجعلك أمام ضميرك ليصبح مرجعيتك الوحيدة ان كنت ذكيا. ومن بداهة الامور ألا تستسلم لأحد ولا تخشى أحداً الا اذا ذهبت السفاهة بأن يخضعوك لابتزاز. النفوس الضعيفة ترهب فقدان منصب أو غياب رضاء أو تقليص نفوذ. لكن الامتحان يقضي ان تجوزه موفور الكرامة، معتقا من الضغوط وممحصا الاسماء ما دمنا امام صور وأسماء.

انت كائن حر ومعنى ذلك ان أحداً لا يستطيع ان يملي عليك شريعته. حر من كل استجداء، من كل وعد براق، تعرف ان الآتين الى الندوة البرلمانية معظمهم لا حول له ولا قوة. انت تمتحنهم في ما بعد. انه لمن المهم ان تتابع الحياة السياسية لكي تراقب القيمين ولا تبقى أسير شعار أو سجين دعاوة. دقق في كل شيء، في كل قولة، وما تم مما عاهدوك عليه ولم ينجزوا فمن كذب سوف يكذب ومن لم يوف لن يوفي. ليس مثل الانسلاخ عن ماضيك يحررك ويجعلك خليقة جديدة طالعة من فجر الحق. لعل الاقتراع الآتي هو أول ظرف تسائل نفسك فيه عن رؤيتك وعن رأيك. فالانسان الحر من غيّر رأيه وكفر في ماضيه وانعتق من السخافة اللبنانية القائلة: "هدا ألو علينا" ولا يكون ما "الو عليك" اكثر من جلوسه في مجلس عزاء او هناك بعرس وكأن اتراحك وأفراحك منطلق الدنيا أو مطرحها وكأن الوطن ينتهي عند عيلتك.

* * *

الجميل ان تفهم ان ليس من بشري نازلاً من السماء وان لا قدسية تالياً لأحد في هذه المعارك. ان تتخذ الشك منهجاً، ان ترى المرشحين في احجامهم، الا تتسرع في الحكم على أحد، ان تعترف بالحسنات التي بدت، ان تتوقعها ممن بدا حسنا لهي من الامور التي تساعدك على تشكيل قناعة ربما كانت شبيهة بالتوبة. كان حكماء أثينا السياسيون يقولون: "بدا للمجلس والشعب كذا". أي انهم على قناعتهم كانوا على شيء من الشك. بعض من الشك جزء من الحقيقة. مساء اليوم والايام المقبلة – حسب المنطقة التي اتت منها – غربل الأسماء المعروضة واشطب منها ما شئت فان من فرض عليك لائحة كاملة يكون قد أملى عليك قناعاته ولم يحترم ذاتيتك العقلية وارادك من التابعين.

ولئلا تكون تابعا بل منشىء دائم لنائبك ومرجع له يجب ان تكون قادرا مع الطليعة المفكرة والمحبة للوطن على ان تستثير نشوء المؤسسات وان ترعاها بالقدر الذي يرعاها فيه النائب أي ان تكون فاحصا لمن انتخبت كما هو فاحص للحكومة لأن السيادة الوطنية بين يديك والنائب يجيء منها. هذا يفترض استقلال الامة بوعيها ذاتها وتاريخها واستشرافها مستقبلها لانها اذا كانت مسلوبة الذات والتاريخ والاستشراف لا يكون النائب ممثلا أحدا. واذا فنيت السيادة الوطنية يفنى تمثيل النائب ويصبح المجلس عديم التواصل مع الشعب. من هنا ان عليك ان تكون حريصا على ان تنتخب من كان الأقرب الى وعي ذاتنا الوطنية وخدمتها وقدراتها. في ظل سيادة منقوصة كالتي نعيشها اليوم عليك بانتخاب من كان الاحرص على استعادتها حتى يكون النائب ممثلا إياك لا ممثلا سواك ويصير قادرا على اعادة اللحمة بين شعب محب للاستقلال ومجلس أقل حبا للاستقلال. كيف يزول الشرخ بين الندوة البرلمانية وشعبنا، ذلك هو السؤال الكبير.

تمنيت ان نكون شعبا مستقلا. ولست أريد بذلك فقط قدرتنا على القرار الوطني ولكن قدرتنا على الفكر. الهاجس الاساسي عندي ليس اولا ان تنشئ شعبا مستقلا ولكن انسانا مستقلا عنده قدر من الثقافة ومن التنشئة الاخلاقية وكلاهما يجعله على شيء من الصلابة. أرى نفسي سنة بعد سنة تحت ضغط رؤيتي شعبنا مصابا في كل شرائحه المجتمعية بشيء من البدائية بما يرافقها من انفعالية وعجز عن التحليل وتاليا في عجز عن الاتيان بما كان المغفور له الشيخ عبدالله العلايلي يسميه المألفة Synthese. لا رؤية شاملة لشأن الوطن لانعدام التحليل لأمراضنا الحقيقية. نحن أمة لا تقف على مسافة من أية مشكلة، اللبناني، بعامة، مشكلة واللبنانيون معا مشكلة لأن البدائية تريحهم، ومما يريحهم ان تفكر الحكومة عنهم وهذا يفسح لهم في المجال ليتعاطوا "النق" وهو، تحديدا، عدم العمل.

الأنكى في وضعنا اننا، شعبا، نتعاطى السياسة في أيام الانتخابات على هذا النزر القليل الذي نعرفه عن المرشحين ونهملها، ما عدا "النق"، أربع سنوات اخرى. ويعتقد اللبناني انه مسيس لكونه يحكي سياسة أكثر من بقية الشعوب. ولكن أليس الحكي الكثير دليلا على انقطاع الفعل؟ اللبناني لا يصنع الحكم فهو وارث للمعضلات التي تركها المجلس الاخير ولا يساهم في حلها ويترك للمجلس الجديد ان يكمل الحلول. فالتواصل هو بين الهيئة القديمة والهيئة الجديدة دون مرور بالشعب. وهذا هو تحديدا الغاء الديموقراطية التي ليست حكما مجلسيا او حكوميا ولكن اجتماع المواطنين (وما قلت اجماعهم) حول خلاص البلد.

ما يلفت فينا اننا بشر ضبابيون في الشأن العام. والضبابي حكواتي. في البدء والاخير كان عندنا الكلام وهو يغني عن الكلمة – الفعل. ومن الحكواتية، في قراءتي، مقولة الوفاق الوطني. هل تعني مصالحة الزعماء ومعهم الطوائف؟ انى يكون لنا هذا وفي الحياة السياسية هذا الكلام لا معنى له اذ ليس من وفاق في اي بلد في العالم والحياة الوطنية قائمة على صراعات التيارات والاحزاب. ما أفهمه بين السطور احيانا انه وفاق بين أمراء الحرب. ولكن على ماذا؟ واذا كان السلم الاهلي ليس مجرد انتهاء للحرب الاهلية ولكنه تخطيها الى البنيان والوطن المجدد بالابداع فماذا تعني العبارة؟ الكل يستعملها وأظن انه في عقله الباطن يريد المحاصصة. لقد أقلق فؤاد شهاب ان السياسيين يتقاسمون قالب الجبنة والأمور تسير اليوم وكأن الرئيس شهاب يصف شعباً غير شعبنا.

* * *

كيف يتم الوفاق بين طوائف متصاعدة سياسياً وعدداً ونضجاً وطوائف تنحدر سياسياً وعدداً ونضجاً؟ عندنا هذه المفارقة في لبنان اننا نريد توازنا طوائفياً وفي الوقت نفسه تسابقاً طوائفياً. في هذا الاطار ماذا يعني الوفاق الوطني؟ وأي وفاق على صعيد آخر، بين الأثرياء الأكابر (ربما كانوا في تقديري ٧ او ٨ في المئة) والفقراء الأكابر الذين هم دون مستوى الفقر (٣٢ في المئة وأكثر) والفقراء الذين لا يموتون جوعاً (حول ٦٠ في المئة). واذا جمعنا الفقراء الأكابر والفقراء الأصاغر يكونون ما لا يقل عن ٩٢ في المئة من شعبنا. مع من يتوافق هؤلاء جميعاً؟ القضية ليست في ان يعود العماد عون وان يتحرر سمير جعجع (وأنا لا انكر الجانب الانساني في هذه الدعوة). لا يزول الاحباط بهذا. يزول بقراءة قول السيد: "كنت جائعاً فأطعمتموني".

هذه هموم يجب ان تكون في قلب الناخب قبل ان يقترع. وهذه لا يمكن تقديرها تقديراً في المرشحين الذين لم يقولوا لنا تفصيلاً آراءهم فيها او لم يقولوا شيئاً اطلاقاً. لم يصلوا حتى مستوى الحكي احيانا. مع هذا عندنا ساعات تفصلنا عن الاقتراع الاول. ربما امكن بعضا منا في جهاد روحي وتأملي ان يرى من كان الاقرب الى جبه التساؤلات التي يطرحها عيشنا الوطني.

ألمك أنك تنتخب في القرف وقد لا تكون مسحوراً ببعض ممن ستنتخبهم. حاول ان تشكل قناعة دنيا عن كل من سوف تختار علّك تكوّن بعضاً من تطلعات.

عند ظهور المجلس الجديد يكون علينا ان نتصدى لكل هذه المشكلات وفي التوازي مع هذا الفكر والعمل السياسيين ان نبدأ بتربية شعبنا وتغيير وضعه الاقتصادي لنغلب البدائية بما فيها اللاسياسة، لنكتسب طبائع العالم الأول فان هذه الطبائع شرط للديموقراطية. والعطش الى الديموقراطية هو اولاً عطش الى الحرية، حرية الخطاب اللبناني المؤتلف الكامل. على هذا الامل اذهب غداً او في الثالث من ايلول الى صندوق الاقتراع مكتفياً بالبصيص الذي في عينيك على رجاء الرؤية العظيمة.

بقلم المطران جورج خضر